﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمًّىۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ ٨﴾ [الرّوم: 8]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ربط غفلة النّاس عن الآخرة، بعدم التّفكّر في بديع صنع الكون بالحقّ

لَمّا أنكَر المشركون الإلهَ بإنكارِ وعْدِه، وأنكَروا البَعثَ كما قال سبحانه: ﴿وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ﴾ أردَف هذا أنَّ الأدلَّةَ مُتظاهِرةٌ في الأنفُسِ والآفاقِ على وُجودِه وتفرُّدِه بخَلْقِها، وأنَّه لا إلهَ غيرُه، ولا ربَّ سِواه، وأنْكَرَ عَلَيْهِمْ غَفْلَتَهم عَنِ الآخِرَةِ، مَعَ شِدَّةِ وُضوحِ أدِلَّتِها[1]؛ وذلك بوعظهم بالتّفكّر في خلق السّموات والأرض، الدّالّة على بديع الصّنعة، وعظمة الصّانع، وذلك مسلك للإيمان، ودلالة على الاعتبار، لليقين بعظمة الخالق القهّار، والاستدلال بأنّ له في كلّ شيء آية، تدلّ على أنّه الواحد، وقد روي عن أبي الدّرداء رضي الله عنه أنّه قال: تَفَكُّرُ ساعَةٍ خَيْرٌ مِنْ قيام ليلة[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَنفُسِهِمۗ﴾: (نفس) أصلٌ يَدُلُّ عَلَى خُروجِ النَّسيم كَيْفَ كانَ، مِنْ ريحٍ أوْ غَيْرِها، والتَّنَفُّسُ: خُروجُ النَّسيمِ مِنَ الْجَوْفِ، والنَّفَسُ: كُلُّ شَيْءٍ يُفَرَّجُ بِهِ عَنْ مَكْروبٍ، ومِنَ الاسْتِعارَةِ: تَنَفَّسَتِ الْقَوْسُ: انْشَقَّتْ[3]، والنَّفَسُ: الرّيحُ الداخلُ والخارجُ في البَدَن مِنَ الفَمِ والمِنْخَر، وهو كالغذاء للنَّفْسِ[4]، والنَفْسُ: الرّوحُ، والنَفْسُ: العَيْنُ، يقال: أصابت فلانًا نَفْسٌ، ونَفْسُ الشَّيْءِ: عَيْنُه يُؤَكَّدُ به،

(1) المراغيّ، تفسير المراغي: 21/ 30، والشنقيطي، أضواء البيان: 6/ 168.
(2) هناد السري، الزهد: 2/ 468، والسّمرقنديّ، بحر العلوم: 3/ 5.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نفس).
(4) الرّاغب، المفردات: (نفس).

يقال: رأيت فلانًا نَفْسَهُ، وجاءني بنَفْسِه[1]، والمراد هُنا: ذواتهم أي أشخاصهم.

2) ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: (حقّ) أصلٌ يَدُلُّ عَلَى إحْكامِ الشَّيْءِ وصِحَّتِه، والْحَقُّ نَقيضُ الْباطِلِ[2]، والمُرادُ بِالحَقِّ، هو الثّابِتُ الَّذي يَحِقُّ أنْ يَثْبُتَ لا مَحالَةَ لِابْتِنائِهِ عَلى الحِكَمِ البالِغَةِ الَّتي مِن جُمْلَتِها اسْتِشْهادُ المُكَلَّفينَ بِذَواتِها وصِفاتِها وأحْوالِها عَلى وُجودِ صانِعِها ووَحْدَتِه، وعِلْمِه وقُدْرَتِه، واخْتِصاصِهِ بِالمَعْبودِيَّةِ، وصِحَّةِ أخْبارِهِ الَّتي مِن جُمْلَتِها إحْياؤُهم بَعْدَ الفَناءِ بِالحَياةِ الأبَدِيَّةِ، ومُجازاتُهم بِحَسَبِ أعْمالِهِمْ عَمّا يَتَبَيَّنُ المُحْسِنُ مِنَ المُسيءِ[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

أوَلَمْ يَتَفَكَّر هؤلاء المشركون الغافلون المُكَذِّبون بِرُسل الله ولقائه في أنْفُسِهم كيف خلَقَها اللّهُ، ولَمْ يكونوا قَبْلُ شيئًا مَذْكورًا؟! ما خَلَقَ اللّه السَّماوات والأرض وما بينهما إلّا بالحَقِّ، وللدِّلالة على قَيّوميَّتِهِ سبحانه، وتوحيده، ومُطْلَق قُدْرَته، فلَمْ يخلقهما عَبَثًا، وجعل لَهُمَا ولجميع مخلوقاته أجَلًا مُحدَّدًا، تَنْتَهي إليه وهو يوم البَعْث والنُّشور، وإنَّ كثيرًا مِن النّاس بيوم الحِساب لجاحدون مُنْكرون.

تساؤل عن نبذ التّفكّر في الأنفس والكون، لإدراك قدرة الخالق وعظمته

وترشد الآيةُ الكريمةُ إلى تقرير عقيدة البعث والجزاء بذكر الأدلة العقلية المثبتة لها[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة عطف ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ﴾ على ما قَبْلها:

وجه ورود قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ﴾، معطوفًا على

الاستدلال مِن مُقْتَضى الحِكْمَة، على عظمة الخلق، وإبداع الصّنعة

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (نفس).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حقّ).
(3) الآلوسي، روح المَعاني: 21/ 22.
(4) الجزائري، أيسر التفاسير: 162/ 4.

ما قَبْلَه، أو على مُقَدَّر، أي: أَلَمْ يتفكّروا في مصنوعاته[1]؛ لبيان أنَّه "عَطْفٌ عَلى جُمْلَةِ ﴿وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾؛ لِأنَّهم نَفَوُا الحَياةَ الآخِرَةَ، فسيقَ إلَيْهِمْ هَذا الدَّليلُ، عَلى أنَّها مِن مُقْتَضى الحِكْمَةِ"[2] وأنَّ الّذي فعل ذلك، قادر لا محالة، على إعادتهم بعد فنائهم خلقًا جديدًا، ثمّ يكون بعثهم بعد ذلك، ليجازي كلّ عامل بعمله، ولكنّ الكثير من النّاس غافلون عن الآخرة، غير منتبهين ولا مقدّرين، ما فيها من حساب وجزاء، لأنّهم نأوا عن التّفكير في أنفسهم، ولو تفكّروا في معجزتها، ودرسوا عجائبها البديعة، لأيقنوا بلقاء اللّه وحسابه وآخرته، ولكنّهم كفروا فضلّوا عن الحقّ النّاصع الصّراح[3].

غرضُ الاستفهام في الآية:

الغرض من الاستفهام، في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾ التَّقرير، ويُؤَيِّد هذا اعتبار الجملة معطوفة، على قوله: ﴿وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾، لدخول الهمزة على الفعل المنفيّ بالحرف (لَمْ) دخولًا مباشرًا، فهي والحالة هذه، تنفي النَّفْي المستفاد مِن (لَمْ)، فيصير المعنى إثباتًا[4]، واعتبار الاستفهام للتَّقرير، يدفع تَوَهُّم عَطْف الإنشاء على الخبر، لِكَوْن الجملة في حُكْم الخبر[5]، وقيل: الاستفهامُ تَعجُّبيٌّ مِن غَفلتِهم، وعدَمِ تفَكُّرِهم؛ والتَّقْديرُ: هم غافِلونَ وعَجيبٌ عَدَمُ تَفَكُّرِهِمْ[6]، وقيل الاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ﴾، "لتوبيخ أولئك الكافرين الّذين يعلمون ظاهرًا من الحياة الدّنيا، وهم عن الآخرة هم غافلون"[7].

الاستفهام للتَّقرير، يدفع تَوَهُّم عَطْف الإنشاء على الخبر

(1) الشِّهاب الخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 113.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 51.
(3) أسعد حومد، أيسر التفاسير، ص: 3299.
(4) عبد العظيم المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام في القرآن الحكيم: 3/ 242.
(5) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 15/ 105.
(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 51.
(7) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 51.

معنى الواو في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ﴾:

التّفكير الواعي، فريضة إسلاميّة أصيلة

الواو في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ﴾، للعَطْف على جملة، ﴿وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾، لأنّهم نفوا الحياة الآخرة، فسيق إليهم هذا الدّليل، على أنّها من مقتضى الحكمة[1]، وقيل: إنّ الواو للعطف على محذوف، تقديره أنّهم: (أقصَروا نظرهم على ظاهر من الحياة الدّنيا، ولم يتفكّروا في أَنْفُسِهِمْ)، أي: لم يُحدثوا التّفكّر فيها حتّى يظهر لهم بعض بواطنها، أو بمعنى: (أو لم يتفكّروا في أمر أنفسهم، فإنّها أقرب إليهم من غيرها)، والنّفس مرآة يُجتلى فيها للمستبصرين، ما يُجْتَلى لهم في المكنات بأسرها، حتّى يتيقّنوا بأنّه ﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾[2].

دلالة مرجع الضّمير في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ﴾:

التّفكير في النّفس والملكوت، موصل إلى الحقائق بلا فوت

مَرْجِعُ ضمير الرَّفع المُتَّصل في ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ﴾، عائد إلى المشركين الغافلين عن الآخرة، بسبب عدم تدبّرهم في النّفس والكون، بواسطة التّفكير المنطقيّ الواعي، الّذي يُجيل أبصارهم، ويُحرّك عقولَهم، في هدوء وتؤدَة، ممّا يجعلهم يدركون أنّ الله تعالى، لا يُعقل أن يكون قد خلق السّموات والأرض وما بينهما عبثًا، بل لحكمة جليلة تقوم على الحقّ، ولأمد معين في علمه[3].

معنى حَرْف الجَرّ في قوله: ﴿فِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾:

حرف الجرّ بَيْنَ الظَّرْفيَّة الحقيقيّة والظَّرْفيَّة المَجازية

حَرْف الظَّرْفيَّة ﴿فِيٓ﴾ من قَوْله: ﴿فِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾، إمّا أنْ يَكون للظَّرْفيَّة الحَقيقيَّة الاعْتِباريَّة، فيَكونُ ظَرْفًا لِمَصْدَرِ ﴿يَتَفَكَّرُواْ﴾، والمعنى: تَفَكُّرًا مُسْتَقِرًّا في أَنْفُسِهِمْ، ومَوْقِعُ هَذا الظَّرْف مِمّا قَبْلَهُ، مَوْقِعُ مَعْنى الصِّفَةِ لِلتَّفَكُّرِ، وإمّا أن يَكون ﴿فِيٓ﴾ لِلظَّرْفيَّة المَجازيَّة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 51.
(2) المظهريّ، محمّد ثناء الله، التّفسير المظهريّ: 7/ 222.
(3) دروزة محمّد عزّة، التفسير الحديث: 7/ 222.

المُتَعَلِّقَة بِفِعْل ﴿يَتَفَكَّرُواْ﴾ تَعَلُّقَ المَفْعول بِفِعْله، والمعنى: يَتَدَبَّروا ويَتَأَمَّلوا في أَنْفُسِهِم[1].

لطيفة التَّعبير بلفظ (أَنْفُس):

الأنفس غير المؤمنة مَحَلُّ ازدراء وتحقير

المقصود بالأنفس هُنا الذَّوات، وأوثر التَّعبير بِجَمْع القِلَّة (أَنْفُس)، على جَمْع الكثرة (نُفوس)؛ لأنَّ تِلْك الأنْفس غير المؤمنة، الغافلة عن لقاء الآخرة، مَحَلُّ ازدراء وتحقير، ولا يُؤْبَهُ لَها، وإن كانت أكثر عَدَدًا، مقابل النَّفوس المؤمنة المُطمئنة، فناسب المقام اختيار وزن من أوزان جموع القِلَّة، فقال: ﴿أَنفُسِهِمۗ﴾، وقد شاع التَّعبير بجمع القِلَّة (أَنْفُس) في القرآن الكريم، ولِكُلٍّ موضع عِلَّة، يقتضيها السّياق الّذي وَرَدَ فيه، وعِلَّة الحثِّ على التَّفَكُّر في أَنْفُسهم؛ لأنَّ فيها آياتٍ يعرفون بها، أنّ الّذي أوجدهم مِن العَدَم سيعيدهم بَعْد ذلك، وأنَّ الّذي خَلَقَهم أطوارًا، مِن نُطْفَة إلى عَلَقة إلى مُضْغَة إلى آدميّ قد نُفِخَ فيه الرّوح، إلى طفل، إلى شابّ، إلى شَيْخ، إلى هَرِم غَيْرُ لائق أنْ يَتْركهم سُدًى مُهْمَلين، لا يُنْهَوْن ولا يُؤمرون، ولا يُثابون ولا يُعاقبون[2].

نكتةُ ذِكْر القَيْد ﴿فِيٓ أَنفُسِهِمۗ﴾:

تَصْوير حال المُتَفَكِّرين، والتَّذْكير بمآل المُعْتَبِرين

وَقَعَ القَيْد بالجارّ والمجرور: ﴿فِيٓ أَنفُسِهِمۗ﴾، مع أنّه لا تفَكُّرَ إلّا فيها؛ لكونه مَعْمولًا لِـ: ﴿يَتَفَكَّرُواْ﴾، إمّا عَلى تَقْدير مُضاف، والمعنى: في خَلْق أَنْفُسِهم وأحوالها وأطوارها؛ ليَخْرُجوا مِنَ الغَفْلَة، فيَعْلَموا أنَّهم يَعْلَمون ظاهِرًا مِنَ الحَياة الدُّنْيا فقَطْ، ويَسْتَدِلّوا بِذَلِكَ عَلى وحدانيَّة الله تعالى الخالِقِ الباريء المُصَوِّر، ودَلَّ سياق الكلام على المحذوف هنا.

وإمّا أنْ يكون القَيْد ﴿فِيٓ أَنفُسِهِمۗ﴾، ظَرْفًا لِلتَّفَكُّرِ في خَلْقِ السَّماواتِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 52.
(2) السَّعْدي، تيسير الكريم الرَّحمن: 3/ 329.

والأرْض، فيَكون ذِكْرُه تَوْكيدًا لِقَوْلِه: (يَتَفَكَّرونَ)، كَما تَقول: أبْصِرْ بِعَيْنِكَ واسْمَعْ بِأُذُنِكَ[1]، ولِتَحْقيقِ أمْرِه، وتَصْويرِ حالِ المُتَفَكِّرينَ، والتَّذْكيرِ بِهَيْئَةِ المُعْتَبِرينَ[2]، وقالَ الزَّمَخْشَريُّ: في هَذا الوَجْهِ: "كَأنَّهُ قالَ: أوَلَمْ يُحَدِّثوا التَّفَكُّرَ في أنْفُسِهِمْ ؟ أيْ: في قُلوبِهِمُ الفارِغَةِ مِنَ الفِكْرِ، والفِكْرُ لا يَكونُ إلّا في القُلوبِ، ولَكِنَّهُ زِيادَةُ تَصْويرٍ لِحالِ المُتَفَكِّرينَ، كَقَوْلِكَ: اعْتَقِدْهُ في قَلْبِكَ وأضْمِرْهُ في نَفْسِكَ، ويَكونُ صِلَةَ المُتَفَكِّرِ، كَقَوْلِكَ: تَفَكَّرَ في الأمْرِ وأجالَ فِكْرَه"[3]، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ﴾ في مَعْنى قَوْلِه تَعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١﴾ [الذّاريات: 21].

معنى ﴿مَّا﴾ في ﴿مَّا خَلَقَ﴾:

﴿مَّا﴾ في قوله: ﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ ...، نافية، وفي هذه الجملة وجْهان: **أحدهما**: أنَّها مستأنفة، لا تَعَلُّقَ لها بِما قَبْلَها، والمعنى: أوَلَمْ يتفكّروا في ذواتهم وخِلْقَتهم، فيقولوا هذا القول؛ ليستدلّوا بذلك على الخالق؟! **الثّاني**: أنَّها مُعَلَّقة للتَّفكُّر في خَلْق السَّماوات والأرض؛ كأنّه قال: أو لم يتفكّروا بعقولهم، فيعلموا أنَّ اللّه ما خلَقَ السّموات والأرض وما بينهما إلّا بالحَقِّ، فتكون في محلّ نَصْب على إسقاط الخافض (الجارّ)[4]، والمعنى الثّاني أظهر، وقد ذُكِرَت هذه الجملة بَعْد إقامة دليل الأنْفُس، استدلالًا بدليل الآفاق[5].

إعمال العقول في المخلوقات، مفضية إلى الإيمان بربّ الأرض والسّموات

فائدةُ أُسْلوبِ القَصْر في الآية:

أوثر التَّعبير في قوله تعالى: ﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا

النّفي والاستثناء أعلى طُرُق القَصْر وأقواها

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 159.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 351، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 15/ 103.
(3) الزَّمخشريّ، الكَشّاف: 4/ 566.
(4) ابن جُزَيّ، التسهيل لعلوم التنزيل: 2/ 165، والسَّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المَصون: 9/ 31، وابن عادل، اللُّباب في علوم الكِتاب: 15/ 388.
(5) شيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاويّ: 6/ 530.

بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾، بأسلوب القَصْر بالنَّفي والاستثناء، وهو أعلى طُرُق القَصْر وأقواها؛ لِمجابَهة إنكار الغافلين مِن المشركين، ومَن على شاكلتهم، والقَصْر هُنا مِن قَصْر الصِّفة، وهو خَلْق السَّماوات والأرض على الموصوف، وهو التَّعَلُّق بِالحَقِّ قَصْرًا حقيقيًّا تحقيقيًّا.

لفتةُ الطِّباق بَيْن ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ و﴿وَٱلْأَرْضَ﴾:

تأكيد طلاقة القُدرة الإلهيَّة، في التّصرّف والهيمنة على الكون

جاء سياق النظم الكريم في قوله تعالى: ﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ في الجمع بين متضادَّيْن مع مراعاة التقابل بينهما، وهو فنُّ الطِّباق بَيْن السّماوات والأرض؛ لتأكيد طلاقة القُدرة الإلهيَّة، وعَظَمة الخالق سبحانه ووحدانيته ورُبوبيَّته، وسَعَة سُلْطانه بِذِكْر العالَمَيْن: العُلْويّ والسُّفْليّ وما يشتملان عليه مِن آياتٍ وعِبَرٍ، تُلْجِئُ كُلَّ ذي لُبٍّ إلى الإيمان بالله تعالى.

فائدة ذكر الظّرفيّة في قوله ﴿بَيْنَهُمَآ﴾:

عظمة ما بَيْنَ السَّماوات والأرض، تقارَنُ بعظمة كلّ منهما

قوله تعالى: ﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾، نجد في التَّنصيص على ذِكْر ما بَيْنَ السَّماوات والأرض، دليلًا على أنَّ ما بيْنَهما أمرٌ عظيمٌ، يُقارَنُ بعظمة السَّموات، وعظمة الأرض، حيثُ استحقَّ أنْ يُجعلَ قَسيمًا لهما، فهذه ثلاثةُ أشياءَ: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾، ﴿وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾، ومِن المعلوم عِظَمُ الأرض وعِظَمُ السَّماء؛ إذَنْ: فعِظَمُ ما بيْنَهما موازٍ لهما[1]، وفائِدَةُ ذِكْر السَّماوات هُنا، أنَّ في أحْوالِ السَّماوات مِن شَمْسِها وكَواكِبِها ومَلائِكَتِها، ما هو مِن جُمْلَةِ الحَقِّ الَّذي خُلِقَتْ مُلابِسَةً لَه[2].

معنى (الباء) في قوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾:

معاني حرف المعنى، مفيدة في البيان المتوخّى

الباء في قوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾، إمّا سببيَّة، أي ما خلقها إلّا للحَقِّ، وإمّا حاليَّة، والمعنى: مُتَلَبِّسة بالحَقِّ، مقرونة بالحِكْمَة، لا باطِلًا

(1) ابن عُثَيْمين، تفسير ابن عثيمين - سورة الرّوم، ص: 45.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 53.

ولا عَبَثًا خاليةً عن حِكْمة، ولا لتبقى خالدة، وإنَّما خَلَقها، مُؤَجَّلة بِأجَلٍ مُسَمًّى[1]، وخلاصة ذلك، أنَّ "الباء في قوله بِالْحَقِّ للملابسة، أي ما خلقها باطلًا ولا عبثًا، بغير حكمة بالغة، ولا لتبقى خالدة، وإنّما خلقها مقرونة بالحقّ، مصحوبة بالحقّ"[2]، وتلك حكمة اللّه في الخلق والتّقدير.

دلالة (أل) في قوله تعالى: ﴿بِالْحَقِّ﴾:

أفادت (أل) الجِنْسيَّة في قوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾، مَعْنى الكَمال، أي الحَقُّ المُطْلَق الكامِل الّذي لا يعلوه حَقٌّ؛ "لِأنَّ اسْمَ الجِنْسِ في المَقامِ الخِطابيِّ، يُؤْذِنُ بِكَمالِهِ في صِفاتِهِ"[3].

عِلَّة عَطْف قوله: ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ على ما قبله:

الحِكْمَة البالِغة في مقاصد الخَلْق، وعلل الفناء

عُطِفَ قوله: ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ عَلى ﴿بِالْحَقِّ﴾، عَطْف العِلَّة على المعلول؛ لاتِّصال الكلام بعْضه ببعض، والمراد بالأجَل: آخر المُدَّة لا المُدَّة نَفْسها، والمعنى: ما خَلَقَ السّموات والأرض وما بينهما باطلًا بغير غرض وحِكْمة بالغة، ولا لتبقى خالدة، وإنَّما خَلَقَها مقرونة بالحَقِّ، وبتقدير أجَل مُسَمّى تَنْتَهي إلَيْه، وهو يَوْمُ القيامَة، وفي هَذا تَنْبيهٌ عَلى الفَناء، وإشارَةٌ إلى البَعْث والنُّشور، وأنَّ لِكُلِّ مَخْلوقٍ أجَلًا لا يُجاوِزُه[4]، وأبان ابن عاشور عن غرض هذا العَطف، بقوله: "فَكانَ جَعْلُ الآجالِ لِبَقاءِ المَخْلوقاتِ مِن جُمْلَةِ الحَقِّ الَّذي خُلِقَتْ مُلابِسَةً لَهُ، ولِذَلِكَ نُبِّهَ عَلَيْهِ بِخُصوصِهِ اهْتِمامًا بِشَأْنِه، وتَنْبيهًا عَلى مَكانِه، وإظْهارًا أنَّهُ المَقْصِدُ بِكيانِه، فعَطَفَهُ عَلى الحَقِّ لِلاهْتِمامِ بِهِ، كَما عَطَفَ ضِدَّهُ عَلى الباطِلِ، في قَوْلِهِ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا

(1) الطَّيبي، فتوح الغيب: 12/ - 214 - 212، وشيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاوي: 6/ 530، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 15/ 106.

(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 8/ 6.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 53.

(4) الطَّيبيّ، فتوح الغيب: 12/ 215، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 15/ 107، والشّوكانيّ، فَتْح القدير: 3/ 99.

وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ [المؤمنون: 115]، فقال ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ﴾"[1].

بلاغة الكِناية في قوله: ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ﴾:

أجَل المخلوقات مَهْما طال، فلا بدّ من الفناء والزّوال

في قوله: ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ﴾ كناية عن صِفة مِن مجموع أمْرين: أحدهما: زوال الحياة الدُّنيا، والثّاني: بَدْء الحياة الآخرة، وفي السّياق المحكم، إشارة إلى أنّ للسّموات والأرض وما بينهما أجلًا مسمًّى، تنتهي إليه، وهو يوم القيامة، وفي هذا تنبيه على الفناء، وأنّ لكلّ مخلوق أجلًا لا يجاوزه، وقيل: معناه أنّه خلق ما خلق، في وقت سمّاه لخلق ذلك الشّيء[2].

وجهُ تنكير لفظ ﴿وَأَجَلٍ﴾ ودلالته:

ربط مصير المخلوقات بالآجال، حكمة الله العزيز المتعال

قوله: ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ﴾، فيه ورود لفظ ﴿وَأَجَلٍ﴾، دالًّا على التّقليل، وقد نُكِّرت الصّفة والموصوف، وهذا ما أكّده النَّعْت ﴿مُّسَمًّى ۗ﴾، ومفاد ذلك أنّ الأجَل مَهْما طال فهو مُقَدَّرٌ، ولا بُدَّ لَه مِن انتهاء، وفي التّنكير تعميم لا يسلم منه موجود، بما يطاله من أعراض وكوارث وهلاك، وأنَّ كلّ مخلوق سوف يفنى، ولا بقاء لشيء في الملكوت، إلّا لله ربّ العزّة والجبروت، وقد قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرّحمن: 26 - 27].

سِرُّ تَتابع المؤكّدات في سيّاق الآية المحكم:

تنزيل السّامع مَنْزِلَة الشّاكّ، في وجود من يجحد لقاء الله

تَتابعت المُؤَكِّدات في قوله: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾، حيث أُكِّدَت الجملة بـ(إنَّ)، واسميَّة الجملة، واللَّام المزحْلَقة، لإنكار الكافرين أنَّهم عَلى كُفْرٍ، أو "لِتَنْزِيلِ السّامِع مَنزِلَةَ مَن يَشُكُّ في وُجود مَن يَجْحَدُ لِقاءَ اللَّهِ، بَعْدَ هَذا الدَّليلِ الَّذي مَضى، بَلْه أنْ يَكونَ الكافِرونَ بِهِ كَثيرًا"[3].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 54.
(2) القِنَّوجيّ، فتحُ البيان في مقاصد القرآن: 10/ 229.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 54.

دلالة تنكير الوصف ﴿كَثِيرًا﴾، وأثره في السّياق:

كلّ بلاغ يواكبه قلّة مؤمنة، وكثرة كافرة

ورد في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾ تنكير لفظ ﴿كَثِيرًا﴾ للتَّكثير، والمُراد بالكثير هُنا الكُفّارُ عَلى الإطْلاق، أوْ كُفّارُ مَكَّة عمومًا، ولا شكَّ أنَّ البيئات الكافرة، تعجّ بالمئين من الجاحدين، وهم يجتمعون في المقاصد والغايات، ويختلفون في الوسائل والممارسات، ولا ريب أنّهم يمثّلون الكثرة الكاثرة، في كلّ مراحل الصّراع بين الحقّ والباطل، وعليه فقد كان الأنسب في السّياق، أن يُؤْثَرَ التّنكيرُ، لإفادة العموم، حيث كان التّعبير عن انتشار الظّاهرة، بصورة طفريّة مؤثّرة، ونؤكّد أنّه في التّقييد بـالوصف ﴿كَثِيرًا﴾، إشارة إلى كَثْرة الجاحدين بالآخرة، والمُنكرين لَها، وإلى قِلَّة المُقِرّين المَوَحِّدين بالنِّسبة لِهؤلاء[1].

معنى الواو في ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا﴾:

شيوع الكفران، من شقاء الإنسان

الواو في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾ استئنافيّة، والجملة لا محلّ لها استئنافيّة[2]، وقيل الواو حالية[3]، والأوّل أظهر، وفي الجملة بيان بأنّ كثيرًا من النّاس كافرون، لا يصدّقون بأنّهم مبعوثون بعد الموت، وأنّهم ملاقون ربّهم، يوم يقوم النّاس لربّ العالمين[4]، وكفرهم يتجلّى في أنّهم لا يؤمنون بأنّ السّموات والأرض، لا بدّ لها من أن تنتهي إلى أجل مسمّى، وهو قيام السّاعة، ووقت الحساب والثّواب والعقاب[5]، وأنَّ حياة الإنسان كحياة الأكوان، لا تنتهي بهذه الدّورة القصيرة على الكوكب الأرضيّ، وإنّ له لحياة أخرى، أعظم، وأبقى[6].

(1) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 15/ 107.
(2) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن الكريم: 21/ 27.
(3) محيي الدّين درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 476.
(4) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 11/ 486.
(5) القاسميّ، محاسن التّأويل: 8/ 6.
(6) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 11/ 486.

بلاغة الكناية في قوله: ﴿بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ﴾:

لِقاءُ اللهِ تَعالى أعظَمُ الأُمورِ، وفيه الفَوْزُ أو الخُسران

في قوله: ﴿بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ﴾ كناية عن موصوف هو يوم الحِساب؛ حيث أَخْبَر سبحانه عن كَثيرٍ مِنَ النّاسِ، أنَّهم كَفَرَةٌ بِذَلِكَ اليوم، فعَبَّرَ عنهُ بِلِقاءِ اللهِ؛ لِأَنَّ لِقاءَ اللهِ ﷻ هو أَعْظَمُ الأُمورِ، وفيهِ النَجاةُ أوِ الهَلَكَةُ[1]، خصوصًا وأنَّ لقاء ربّهم يقين، قد دلّت الأدلّة القاطعة على صدقه وحصوله لا محالة، ومن كفر بلقاء الله، فقد أنكر معلومًا من الدّين بالضَّرورة، وردّ على اللّه وحْيَه وأمرَهُ وتشريعَهُ، وفي ذلك هلاكه في الدّنيا، وخسرانه في الآخرة.

دلالة التَّعبير بالرُّبوبيَّة والضّمير في ﴿رَبِّهِمْ﴾:

تقريع وتوبيخ للجاحدين المُنْكِرين، من مقاصد هذا السّياق

في التَّعبير بالرُّبوبيَّة، وإضافتها إلى ضمير كثير الناس في قوله: ﴿رَبِّهِمْ﴾ توبيخ وتقريع لهؤلاء المُنكرين لقاء رَبِّهم، المُتَفَضِّل عليهم بِنِعَمِه وإحسانه، ورجوعهم إلى العَرْضِ عَلَيْه للحِساب، والثَّوابِ والعِقابِ في الآخِرَةِ.

نكتة تقديم المسند على المسند إليه:

الكفر بلقاء الله أشنع الكفر وأبشعه

ورد في قوله تعالى: ﴿بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾ تقديمُ المسند، وهو قوله: ﴿بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ﴾، على المسند إليه، وهو قوله: ﴿لَكَٰفِرُونَ﴾، وفي هذا التَّشنيعُ عليهم بإظهارهم مُسارعين إلى الكُفْر بلقاء رَبِّهم، ونكران جميله وعطائه غيرالمحدود، وهو المُنْعِم عليهم، فكأنَّ في هذا التَّقديم مُسَوِّغًا للغارة عليهم، وتهديدهم.

علة إيثار التَّعبير باسم الفاعل ﴿لَكَٰفِرُونَ﴾:

الإصرار على الكُفْر، والرُّسوخ فيه، ضلال وهلكة

النُّكتة في إيثار التَّعبير باسم الفاعل ﴿لَكَٰفِرُونَ﴾؛ للدِّلالة على أنَّ هؤلاء ثابتون على الكُفْر، راسخون فيه، ومُستقِرّون عليه، كَأَنَّهُ غَريزَةٌ لَهُمْ، والمعنى: "أيْ لَساتِرونَ ما في عُقولِهِم مِن دَلائِلِ

(1) ابن عَطيَّة، المُحَرِّر الوَجيز: 1472.

وحْدانيَّتِهِ وحُجَجِ قُدْرَتِهِ وحِكْمَتِهِ سِتْرًا عَظيمًا، فهم لِذَلِكَ يُكَذِّبونَ بِما وعَدَكم سُبْحانَهُ مِن إدالَةِ الرّوم عَلى الفُرْسِ، فلا يَهولَنَّكم ذَلِكَ لِأَنَّهم قَدْ كَذَّبوا بِما هو أَكْبَرُ مِنهُ، وهو الآخِرَةُ عَلى ما لَها مِنَ الدَّلائِلِ الَّتي تَفوتُ الحَصْرَ"[1].

معنى اللّام في قوله: ﴿لَكَٰفِرُونَ﴾:

اللّام في قوله: ﴿لَكَٰفِرُونَ﴾؛ لتأكيد كُفْر الكثير مِن النّاس بالآخرة، وذلك مُروقٌ عن وحي الله المنزل على رسله، وفيه إشارة إلى كون أكثر النّاس لا يوقنون بلقاء ربّهم، فينصرفون عن هذا التّدبر والتّفكير، ولذلك جاء التّأكيد باللّام، لإبراز فظاعة الكفر بالآخرة، وذلك أنَّ المكذِّب سوف يصعق بوجود الآخرة، وما فيها من حساب وسوء مصير، بالنّسبة لكلّ مكذّب غَرير.

الكفر بلقاء الله، منبئ عن انطماس البصيرة

بلاغة التّذييل في الآية:

التّذييل في قوله: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾، مُقَرِّرٌ لِما قَبْلَه بِبَيانِ أنَّ أكْثَرَهم غَيْرُ مُقْتَصِرينَ عَلى ما ذُكِرَ مِنَ الغَفْلَةِ، عَنْ أحْوالِ الآخِرَةِ، والإعْراضِ عَنِ التَّفَكُّرِ فيما يُرْشِدُهم إلى مَعْرِفَتِها، مِن خَلْقِ السَّماواتِ والأرْضِ، وما بَيْنَهُما مِنَ المَصْنوعاتِ، بَلْ هم مُنْكِرونَ جاحِدونَ، بِلِقاءِ حِسابِهِ تَعالى وجَزائِهِ بِالبَعْثِ[2].

إنكار الآخرة كفران، والغَفْلَة عن المصير خسران

(1) البِقاعي، نَظْم الدُّرَر: 15/ 50.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 352.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث والأربعون،
سورة الرّوم من الآية 08 إلى سورة لقمان الآية 20
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثالث والأربعون، سورة الرّوم من الآية 08 إلى سورة لقمان الآية 20
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 43 ، 816 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-94-5
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 43 : المجلد الثالث والأربعون، سورة الرّوم من الآية 08 إلى سورة لقمان الآية 20.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-94-5
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9381682 بتاريخ 2024/12/31م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»